الفصل الحادى والعشرون

الدين والعقل فى فرنسا

١٦٤٨ ـ ١٧١٥

١ ـ تقلبات الديكارتية :

فى ١٦٩٤ عرف قاموس الأكاديمية الفرنسية الفيلسوف :

بأنه رجل توفر على البحث فى مختلف العلوم ، واستقصاء آثارها ونتائجها سعيا للوصول الى أسبابها وأصولها ومبادئها ، ويطلق الفيلسوف كذلك على رجل يحيا حياة هادئة منعزلة ، بعيدا عن صخب الدنيا ومتاعبها • وقد يطلق أحيانا على الرجل الهوش الذهن الذى يعتبر نفسه فوق مسئوليات الحياة المدنية وتبعاتها (١) •

ومن الفقرة الأولى من هذا التعريف يتبين أنه لم يكن بعد ثمة تمييز بين الفلسفة والعلم ، فالعلم باعتباره « فلسفة طبيعية » يمكن أن يكون فرعا من الفلسفة ، حتى القرن التاسع عشر • ومن العبارة الأخيرة من هذا التعريف نستنتج أن « الأربعين الخالدين » فى عهد لويس الرابع عشر قد اشتموا رائحة الثورة فى جو الفلسفة ، وكأن المبشرين بعصر الاستنارة أو رواده الأوائل كانوا قد افتتحوه بخطاب تمهيدى •

وبين التفريعات الثلاثة لهذا التعريف تذبذب التراث العقلى لرينيه ديكارت بين ذيوع الصيت والانكار • وكان للتراث نفسه ثلاثة أبواق ، ردد أحدها صوت الشك أساسا واستهلالا لكل فلسفة ، وأعلن الثانى عن الآلية الشاملة للعالم الخارجى ، أما الثالث فقد عزف ألحان الترحيب بالعقيدة التقليدية ، وأخرج الله والارادة الحرة والخلود من دوامة العالم • وكان ديكارت قد بدأ بالشك وانتهى بالتقوى ، واستطاع خلفاؤه أن يتناولوه على أى من الوجهين • ان نساء الندوة القديمة ـ

السيدات المثقفات ـ اللائى هجاهن موليير ١٦٧٢ ـ وجدن بعض الراحة المثيرة من المسبحه فى دوامة الكوزمولوجيا الجديدة (علم الكونيات) وقالت مدام سيفينى عن فلسفة ديكارت بأنها موضوع حديث ما بعد العشاء فى ندوتها ، وأنها ، ومدام جرينان ، ومدام دى سابلى ، ومدام دى لافاييت كن جميعا من نصيرات الديكارتية .. وكانت النساء البارزات فى المجتمع تشهدن المحاضرات التى يلقيها أتباع ديكارت فى باريس (٢) . وتبنى كبار النبلاء النهج الفلسفى . وكانت الندوات الديكارتية تعقد أسبوعيا فى قصر دوق دى لوين ، وفى قصر الأمير دى كونديه فى باريس ، « وفى أفخم فنادق العاصمة (٣) . وعلمت الطوائف الدينية ـ الوعاظ ـ والبندكت والأوغسطيون ـ الفلسفة الجديدة فى مدارسها . وأصبحت أسلوبا جديدا لتمجيد العقل فى العلم والشئون الانسانية ، مع اخضاعه بدقة ، فى الدين ، للوحى الالهى كما فسرته الكنيسة الكاثوليكية . وتقبل أنصار جانيسن وكنيسة يورت رويال الديكارتية باعتبارها توفيقا رائعا بين الدين والفلسفة .

ولكن ألمع المرتدين فيهم ، بليزبسكال استنكر الديكارتية مدخلا للالحاد ، وقال « لن أغفر لديكارت ، ربما كان مغتبطا ، وفى كل فلسفته ، بالاستغناء عن الله ، ولكنه ما كان فى مقدروه أن يتحاشي السماح له بنقرة بطرف الأصبع ليحرك العالم ، بعد أن كان فى غير حاجة الى الله (٤) » . وفى هذه النقطة اتفق اليسوعيون مع بسكال ، وبعد ١٦٥٠ نبذوا الديكارتية باعتبارها وسيلة ماكرة خبيثة لتقويض أركان العقيدة الدينية . وأرادت السوربون حرمان ديكارت من حماية القانون ، فدافع عنه بوالو ، وحرض نينودى لنلكوس وغيره موليير على هجاء السوربون ، فأذعنت للنقد وتوقفت (٥) . أما العلامة هيوت الذى ناصر الديكارتية لأمد طويل . فانه انقلب عليها لأنها لم تقف من المسيحية موقفا ثابتا ، تناولتها بالمديح تارة وبالتجريح تارة أخرى . وتزايد انزعاج رجال اللاهوت لصعوبة التوفيق بين تحول الخبز والخمر الى جسد المسيح ودمه ، وبين وجهة نظر ديكارت فى « المادة » باعتبارها امتدادا خالصا . وفى ١٦٦٥ حرم لويس الرابع عشر تدريس الفلسفة فى الكلية الملكية ، وفى ١٦٧١ امتد هذا الحظر الى جامعة باريس ، وفى ١٦٨٧ اشترك بوسويه فى الهجوم على الديكارتية .

وأثارت هذه الاتهامات وتلك الادانة الاهتمـــام بالديكارتية من جديد • وجذبت الأنظار الى مذهب الشـك الذى أدخـــله « بحث فى المنهج » ، وانتشر الشك الأولى الذى جاء به هذا المقال خفية ، أما ملحقاته أو ذيوله القويمة المستقيمة فقد ذبلت وانطفـأت جذوتهـــا • وما كان يبقى فى القرن الثامن عشر شيء من هذا « المنهج » الذى كان يوما ظافرا منتصرا اللهم الا محاولته الهبوط بالعالم الى مجـرد آلة « ماكينة » تذعن لقوانين الفيزياء والكيمياء • وبدا أن كل اكتشـــاف جديد فى العلوم يؤيد « آلية » ديكارت ، ويضعف الثقـــة فى لاهوت ديكارت • ولم يوجد مكان لرب ابراهيم واسحق ويعقوب فى الصورة التى وضعها ديكارت للكون ، كما أن المسيح لم يكن ماثلا فيها • ولم يبق فيها الا رب عملاق أعطى العالم دفعة أولية ، ثم تقاعس ، اللهم الا بوصفه كفيلا وضامنا لأحداس ديكارت ، وهذا لم يكن الرب المهيب الرهيب الذى ورد ذكره فى العهد القديم، ولا الأب الرحيم الذى ورد ذكره فى العهد الجديد ، انه كان رب «الربوبيين» ، غير مشخص ولا عمل له ، جدير بالاهمال ، خاضع لمختلف القوانين ، فمن ذا الذى يفـــكر فى الصلاة من أجل هذا العبث الابيقورى ؟ وبالفعـــل فى عامى ١٦٦٩ و ١٦٧٨ شرحت كتب غليوم لامى الاستاذ بكليـة الطب فى جامعـــة باريس ، علم نفس ميكانيكى تماما ، واســـتبقت بذلك كتب كوندياك « فى الأحاسيس » (١٧٠٤) كما شرحت فلسفة مادية اسـتبقت كتـــاب لامترى « الانسان الآلة » (١٧٤٨) • وفى غمرة هـــذا العـراك قام سيرانو دى برجراك برحلاته المخزية الى القمر والشمس •

٢ ـ سيرانو دى برجراك : ١٦١٩ ـ ١٦٥٥

سيرانو بالنسبة لمعظمنا هو العاشق الولهـــان الذى قلده الروائى روستان ساخرا ، والذى خسر كل سباق مع ربات الجمـال وهو على وشك الفوز بالوصال • ولكن سيرانو الحقيقى لم يخب رجاؤه الى هذا الحد ، بل تنعم بالحياة وبالحب ، وقضي وقته مستمتعا كل المتعة • والى التعليم المألوف الذى يتلقاه كل فتى كريم المحتد ، أضاف سيرانو (مع موليير) الاستماع فى شغف ولهف الى محاضرات بيير جاسندى القسيس المحبوب الذى أولع بأبيقور المـــادى ولوكريشس الملحـــد • وأصبح سيرانو روحا قوية بشكل خاص ، فاسقا بما تحمل هذه الكلمة

من معنيين ، منكرا حرا يحيا حياة خليعة مطلقة من كل قيد • وانضم فى باريس الى جماعة دأبت على الصخب والعربدة وتدنيس المقدسات، وذاع صيته فى المبارزة • وخدم فى الجيش ، وأقعدته جراحة لبعض الوقت عن العمل • ثم انصرف عن الملذات الجنسية الى الفلسفة • وكتب أول رواية فلسفية فرنسية ، وفتح الطريق أمام سويفت بالسخرية من بنى الانسان فى رحلات الى أجزاء من العالم لم تطأها قدم • وسخر من القديسين أوغسطين الوقور « الشخصية العظيمة » الذى يؤكد لنا ، على الرغم من أن الروح القدس أنار جوانب عقله ، أن الأرض كانت على عهد مسطحه مثل التنور ، عائمة على الماء مثل نصف برتقالة (٦) •

وجرب سيرانو قلمه فى كل ألوان الأدب تقريبا ، وقلما كان يأخذ أى لون مأخذ الجد ، ولكنه كان عادة يضرب على الوتر الحساس — وبدت ملهاته « المتحذلق اللعوب » فى نظر مولبير صالحة لأن يسرق منها مشهدا أو مشهدين ، أما مأساته « موت أجريبين » فقد مثلث مرة فى ١٦٤٠ ، ثم ما لبثت أن صادرتها السلطات الرسمية وكان عليها أن تنتظر حتى تصل خشبة المسرح ثانية فى ١٦٦٠ ، ولكنهـــا نشرت فى ١٦٥٤ ، وسرعان ما تغنى شباب باريس الطائش المتهور بأبيات الالحاد التى وردت على لسان سيجان :

« ماذا يكون هؤلاء الأرباب اذن ؟ نتاج مخاوفنـــا
وهرائنا التافه ، نعيدها دون أن ندرك لهذا سببا •• ••
أرباب لم يصنعهم انسان ، ولم يصنعوا هم انسانا قط » •

ثم الأبيات تتحدث عن الخلود : « بعد ساعة واحدة من الموت تعود نفوسنا التى زالت من الوجود ، سيرتها قبل الخروج الى الحياة بساعة » •

وبعد طبع هذه الرواية سرعان ما سقطت على أم رأسه عارضة أودت بحياته وهو فى سن السادسة والثلاثين ، وترك وراءه مخطوطة طبعت فى جزءين تحت عنوان « التاريخ الهزلى لدول وامبراطوريات القمر » (١٦٥٧) « والتاريخ الهزلى لدول وامبراطوريات الشمس » (١٦٦٢) ، وكانتا نوعا من القصص العلمى ، المبنى على « كونيات » ديكارت ، مستمدا الكواكب من دواماتها التى كونتها الاهاجة الثورية

فى المادة البدائية • وذهب سيرانو الى أن الكواكب كانت يوما متوهجة مثل الشمس ولكن ،

بمرور الزمن فقدت كثيرا من ضوئها وحرارتها بفعل الانبعاث المستمر لخلاياها التى تحدث مثل هذه الظاهـــرة ، حتى أصبحت باردة معتمة ، ولبابا واهنا تقريبا • اننا نرى حتى البقع الشمسية يكبر حجمها يوما بعد يوما • وما يدرينـا الآن ان هذه البقع ليست الا قشرة على ســـطح الشمس من كتلتها التى تبرد تبعا لفقدان الضوء ، أن الشمس لن تصبح كره معتمة مثل الأرض (٧) ؟

ودفعته الصواريخ فغادر الأرض حتى وصل بسرعة الى القمر • ولحظ أنه طيلة ثلاثة أرباع المسافة ، كان يحس بأن الأرض تشده الى الوراء ، وفى المربع الأخير أحس بجاذبية القمر • « فقلت فى نفسي ان هذا راجع الى أن كتلة القمر أصغر من كتلة الأرض ، ومن ثم يكون محيط تأثيره أصغر من حيث المسافة (٨) • وعندما هبط وقد أصابه الدوار ، وجد نفسه فى جنة عدن ، ويدخل فى مناقشة مع الباهو (الله) حول الخطيئة الأولى ، فيطرد من الجنة الى القفــاز البدائيـــة فى القمر • وهناك يواجه قبيلة من الحيوان طول الواحد منها تسعة أذرع، فى زى الرجال ، ولكنها تمشي على أربع • ولما كان أحـــدهم الروح الحارسة لسقراط أو شيطانه فى أثينا من قبل ، فانه يتحدث بلغـــة يونانية فلسفية ، ويقول لسيرانو ان المشي على أربع هـــو الطريقـــة الطبيعية الصحية ، وان هؤلاء السادة القمريين لديهم مائة حاســـة لا خمسا أو ستا فقط ، وأنهم يدركون من الحقائق ما لا يحصي ولا يعد، ممـــا يخفى على بنى البشر (وقد يتلاعب فونتنيل وفولتير وديدرو بهذه الأفكار) • ويجمح خيال سيرانو : ان هؤلاء القمريين ـ يتغذون على الأبخرة التى تتصاعد من الأطعمة لا على الأطعمة ذاتها ، ومن ثم يتخلصون من متاعب الهضم ومضايقاته ، ومن مهانة خروج الفضلات من الجسم ومفارقاته • وقوانين القمر يســـنها الشبان الذين يجلهـــم ويحترمهم الشيوخ ، وأهل القمر هؤلاء يستنكرون العـــزوبة والتبتل والعفة ، ويمتدحون الانتحار واحراق جثث الموتى والأنوف الكبيرة • ويوضح شيطان سقراط ســـالف الذكـــر أن الدنيـــا لم تخـــلق ، بل

ازلية ، وأن الخلق من العدم (تعلم هذا عن الفلاسفة السكولاسيين) أمر لا يمكن تصوره ، وأن أزلية الكون فكرة ليست أصعب تقبلا من أزلية الاله ، والحق أن فرضية وجود اله ليست ضرورية على أية حال، حيث أن العالم آلة تندفع وتستمر بذاتها • ويجادل سيرانو فى أنه لابد أن يكون هناك اله لأنه رأى بعينى رأسه علاجات خارقة معجزة ، فيسخر الشيطان من هذا كله باعتباره ضربا من الايحاء أو التخيل ، ويثأر لثيوبى قوى جبار للعقيدة القويمة ، حيث يمسك بسيرانو باحدى يديه، وبالشيطان باليد الأخرى ، ويلقى بالشيطان فى الجحيم ، وفى الطريق يقذف بسيرانو فى ايطاليا ، حيث تنبح كل الكلاب من حوله حين اشتمت منه رائحة القمر • وكذلك انجذب انتباه جوناتان سويفت •

٣ ـ مالبرانش : ١٦٣٨ ـ ١٧١٥ :

فى مقابل الانتاج الموصوم بالكفر والمروق عند جاسندى وديكارت، وجد الايمان سندا قويا ، لا فى بسكال وبوسيويه وفنيلون فحسب ، بل فى واحد من أدق وأبرع الميتافيزيقيين فى العصور الحديثة كذلك •

كاد نيقولا مالبرانش أن يكون معاصرا للويس الرابع عشر تماما ، فقد ولد قبله بشهر ، ومات بعده بشهر • ولم يكن ثمة شبه بينهما الا هذا • وكان نيقولا وديع النفس طاهر الذيل ، ومذ كان أبوه سكرتير لويس الثالث عشر ، وعمه نائب الملك فى كندا ، فقد اجتمع له كرم المحتد وحسن التنشئة ، اللهم الا صحته ، فقد كان جسمه ضعيفا مشوها• وليس ثمة ما يفسر أنه عمر حتى السابعة والسبعين الا التزامه بساطة العيش وهدوء الحياة فى الدير • وفى الثانية والعشرين من عمره انضم الى « جماعة المصلى » وهى طائفة دينية تفرغت للتأمل والوعظ ، ورسم قسيسا فى السادسة والعشرين •

وفى العام نفسه وقع على كتاب ديكارت « رسالة عن الانسان » ، وابتهج بطريقة المناقشة والاسلوب معا ، وأصبح ديكارتيا ذا ايمان راسخ بالعقل • وعقد العزم لفوره على أن يبرهن بالعقل على المذهب الكاثوليكى الذى نبتت فيه جذور حياته ووضع فيه كل آماله ، وكانت هذه خطوة جريئة ، ارتدادا من بسكال الى توما الأكوينى • وهى خطوة كشفت عن الثقة العميقة فى الشباب ، ولكنها عرضت حصون

الايمان لغارات العقل • وبعد عشر سنوات من الدرس والكتـابة أصدر مالبرانش فى أربعة مجلدات (١٦٧٤) تحفة من روائع الفلسفة الفرنسية تحت عنوان « البحث عن الحقيقة » • وهنا ، كما هو الحال فى كل فلاسفة فرنسا ، كان وضوح الالتزام الخلقى وادراكه أمرا مقبـــولا ، وأصبحت الفلسفة أدبا •

ولم يكن ديكارت قد بدأ دراساته المضنية عن النفس فحسب ، بل كان قد وضع مثل هذه الهوة بين الجسم ماديا ومكانيكيا وبين العقل روحيا وحرا ، بحيث لا يمكن تصور أى تفاعل بينهما • ومع ذلك بدا هذا التفاعل أمرا لا نزاع فيه : ان فكرة قد تحرك ذراعا أو جيشا ، مخدرا قد يشوش الذهن • وكان نصف حيرة خلفاء ديكارت فى عبور الهوة بين الجسم والفكر •

ان فيلســـوفا فلمنكيا هو أرنولد جيلنكس مهـــد الطـريق أمام مالبرانش ـ وسبينوزا وليبنتز ـ بانكاره التفاعل • ان الجسم المادى لا يؤثر فى العقل غير المادى ، والعكس بالعكس ، واذا بدا أن أحدهما يؤثر فى الآخر ، فما ذاك الا لأن الله قد خلق الحقيقة فى مجـــريين متميزين للأحداث ، أحدهما مادى والآخر عقلى ، وتزامنهما أشبه بتزامن ساعتى حائط على نفس الوقت والسرعة ، تدقان نفس الســـاعات فى وقت واحد ، ولكنهما الواحدة منهما مستقلة عن الأخرى ، اللهم الا أن كلتيهما من مصدر واحد ـ الذكاء الذى وضعهما وبدأهما • ومن‌ثم يكون الله هو المصدر الوحيد لكل من سلسلتى الاســـباب والنتائج المـــادية والعقلية • والحالة العقلية هى الفرصة المناسبة ، لا السبب ، للحركة المادية الناشئة ظاهريا ، والحركة المادية ـ عملا أو احساسا ـ هى مجرد فرصة للحالة العقلية التى تبدو أنها تسببها ، والله ، فى كل حالة ، هو وحده العلة أو السبب× • وعند هذه النقطـــة نقض جلينكس ، الذى

× ان التنقيح الذى أدخله سبينوزا على « نظـرية التـــوازى فى علم النفس البدنى » قد يساعدنا على فهم جيلنكس • ان الله أو الطبيعة تعمـــل فى ناحيتين أو مجريين متزامنين : التعاقبات المادية للعالم الموضوعى ، بما فى ذلك أجسامنا ، والتعاقبات العقلية للعالم الذاتى ، بما فى ذلك مشاعرنا وأفكارنا ورغباتنا • ولا يسبب أحد هذين المجريين المجرى الآخر ، لأن كليهما مجرد جانبين ـ الخارجى والداخلى ـ لعملية واحدة ـ مجرى واحد مزدوج للأحداث •

كانه يخشي الجبرية ، منهجه ، حيث أجاز القول بانه فى الاعمـــال الارادية يمكن أن تكون الارادة الانسانية المتعاونة مع الله ، سببا حقيقيا للنتائج المادية ٠

وأكمل مالبرانش من مذهب « الاتفاقية » المتردد هـذا ٠ فالله دائما هو سبب كل من العمل المادى والحالة العقلية ، وتفاعلهما صورى، ولا يتفاعل أى منهما مع الآخر× ٠ « ان الله وحده يرد الهواء الذى جعلنى هو أتنفسه ٠٠٠ لست أنا الذى أتنفس ، اننى أتنفس على الرغم منى ٠ لست أنا أتحدث اليك ، وكل ما هنالك أنى أرغب فى التحدث اليك (٩) » ٠ ان الله (الطاقة الكلية للكون) هو القوة الوحيدة ٠ وكل ما يتحرك و يفكر ، انما يفعل هذا لأن القوة الالهية تعمـــل من خلال العمليات المادية (البدنية) أو العقلية ٠ والحركة هى الله يعمل فى أشكال مادية ، والتفكير هو الله يفكر فى داخلنا ٠

ان هذه الفلسفة الجبرية بشكل واضح تكتنفها صـــعاب لا تحصي حاول مالبرانش أن يتغلب عليها فى رسائل لاحقة ٠ وحاول جاهـدا التنسيق بين درجة من الارادة الحرة فى الانسان وبين قوة الله الشاملة للكون ، والتوفيق بين الشر والشقاء والنزعات الشيطانية المتعـددة ، وبين السببية أو العلية الوحيدة الموجودة فى كل الوجود لنزعة خيرة عليمة قديرة ، ولن نتعقبه فى هذه المتاهات ، ولكنه فى أثناء جولاته وصولاته يترك لنا قبسا معينا فى علم النفس ٠ فهو يرى أن الأحاسيس فى الجسم لا فى العقل ٠ وفى العقل أفكار ، وهو يعرف الأشياء باعتبارها فقط طوائف من الأفكار ـ من التركيب ، والحجم واللون والرائحة والصلابة والصوت والحرارة والطعم ٠ ومركبات الأفكار هذه ليست مكونة من الشيء لا غير ، فان معظم الصفات المذكورة هنا ليست فى الشيء نفسه ، وكثير من أحكامنا على الشيء ـ أنه كبير أو صغير ، منير أو مظلم ثقيل أو خفيف ، حار أو بارد ، يتحرك بسرعة أو ببطء ـ تصف موقع المشاهد وحالته ووضعه ، لا صفات الشيء الذى يشاهده ٠ ونحـــن لا نعـــرف الأشياء ٠ وكل ما نعرفه هو مدركاتنا وأفكارنا المتحيزة المتحولة ٠ (وكل هذا قبل لوك باركلى بجيل واحد) ٠

× قارن هذا العرض اللاهوتى بنظرية القضاء والقدر التى تقول بأن كل حركة فى المادة وكل حالة عقلية ، تسببها القبلية (الماضي) الكلية ، وأن العوامل المادية والنفس والارادة الحرة ، كلها أدوات القوة الكلية أو الطاقة الكونية التى تعمل عن طريق المادة والعقل ٠

وعلى الرغم من الخلفية الروحانية عنـــد مالبرانش فانه ، بعد ديكارت وهوبز ، يمدنا بتفسير فسيولوجى للعـــادة والذاكرة وتوارد الخواطر فالمادة هى خفة أو رشاقة تفيض بها الأرواح الحيوانية ، نتيجة للخبرات أو الأفعال المتشابهة التى غالبا ما تتكرر ، الى أخـــاديد أو قنوات معينة فى الجسم • والذاكرة هى استعادة نشاط الخواطر التى نشأت فى الخبرة ، فان الخواطر تميل الى الترابط تبعا لتسلسلها أو أو امتدادها المتصل السابق ، وقوة الشخصية وقوة الارادة هما قـــوة الروح الحيوانية التى تتدفق فى أنسجة المخ ، فتعمل على تعميق مجارى الترابط ، وزيادة نشاط الخيال والتصور •

وعلى الرغم من تمسك مالبرانش بأهداب التقوى فقـــد كان فى فلسفته عناصر كثيرة أزعجت بنين بوسويه الحارس اليقظ الأمين عـــلى العقيدة التقليدية القويمة • وفى حركة بارعة لتحويل انطوان أرنولد ذى القلم اللاذع عن المنطق الجانسينى الى نجدة العقيدة القويمـــة ، نجد بوسيويه يحرض أرنولد هـــذا على تأنيب مالبرانش لهرطقتـــه المستترة • ودافع الفيلسوف عن نفسه فى عدة رسائل فصيحة لا تصدق مثل الرسالة الأولى ، واستمر الجـــدال من ١٦٨٣ ـ ١٦٩٧ ، وجلب بوسويه مدفعية فنيلون الخفيفة الى ساحة المعمعمة • ولمـــا رأت مدام سفينى Sevigne الفيران تلتهم محصولاتها ، ويرقات الفراشات تلتهم أشجارها ، شكت من أنها لم تجد الا قليلا من العزاء فى وجهة نظـــر مالبرانش مـــن أن البشر عنصر ضرورى فى أحســـن ما يمـــكن مـــن العوالم (١٠) •

وكان لمالبرانش أصدقاء غيورون كثيرين يمكن أن يتوازنوا مع هؤلاء النقاد ، فقد وجد الشباب وعجائز النساء فى نظريته عن الله عاملا وحيدا فى كل الأفعال ، سرورا باطنيا فى الاستسلام لأمر الله والاتحاد مع الله • وشق الفرنسيون والأجانب طريقهم الى صومعته • وقال أحد الانجليز انه ما قدم الى فرنسا الا ليرى اثنين طبقت شهرتهما الآفاق : لويس الرابع عشر ومالبرانش (١١) •

وجاء باركلى ، وقدم لفيلسوفنا كل اجلال واحترام ودخـــل مع الكاهن العجوز فى نقاش طويل • وسرعان ما دب الضعف الى مالبرانش بعد ذلك ، وكان فى السابعة والسبعين ، وأخذ فى الذبول والنحول

يوما بعد يوم ، حتى لم يكد عقله يجد فى جسمه مجالا أو حيزا لتفكيره . وفى ١٣ أكتوبر ١٧١٥ فاضت روحه وهو نائم .

وخبت جذوة شهرته وشيكا بعد موته ، لأن فلسفته الدينية لم تنسجم مع تشكك وصاية العرش وعربدتها ، كما أنها كانت أقل انسجاما مع النزعة الناشئة عند الفلاسفة لاحلال « ماكينة » العالم محل العناية الالهية . ولكن تأثيره ظهر فى محاولة ليبنتز لاظهار أن الواقع هو أفضل عالم ممكن ، من وجهة نظر باركلى ان الاشياء موجودة فقط فى أدراكنا الحسي أو فى إدراك الله ، وفى تحليل هيوم المدمر للسبب أو العلة باعتبارها صفة خفية مستترة ، وفى توكيد كانت على العناصر الذاتية فى تكوين المعرفة ، حتى فى نظرية الجبرية فى عصر الاستنارة . فان القول بأن الله هو السبب الوحيد فى كل الحركات والرغبات والأفكار ، لا يختلف كثيرا عن القول بأن كل تغيير فى المادة أو فى العقل نتيجة لا مناص منها للقوى الكلية التى تعمل فى الكون فى تلك اللحظة . وفى ساعة نشوة كان مالبرانش قد اقترب ــ ولو أنه أنكر ذلك ــ من جبرية جعلت من الانسان آلة ذاتية الحركة (انسانا أوتوماتيكيا) .

ان مذهب الاتفاقية كان ، فوق كل شيء حلا وسطا بين ديكارت وسبينوزا . رأى ديكارت الآلية أو الميكانيكية فى المادة . ولكن الحرية فى العقل . ورأى مالبرانش أن الله هو السبب الوحيد فى كل عمل فى كل عقل . واتفق سبينوزا ، وهو ثمل بنشوة الوجد الالهى « مثل أى راهب ، مع مالبرانش فى أن سلسلتى الاعمال العقلية والمادية كلتيهما هما نتاج متواز لقوة خلاقة واحدة . ان العابد المتأمل الورع مذ رأى الله موجودا فى كل الوجود ، كان قد لقن ، عن غير عمد منه ، حتى المؤمنين ، « وحدة وجود » (الله والطبيعة شيء واحد ، الكون المادى والانسان ليسا الا مظاهر للذات الالهية) ، لم ينقصها الا عبارة « الله أو الطبيعة » لتصبح فلسفة سبينوزا أو فلسفة عصر الاستنارة .

٤ ــ بييربيل : ١٦٤٧ ــ ١٧٠٦ :

كان « أبو الاستنارة » ابن قسيس من الهيجونوت يعمل فى مدينة كارلا فى مقاطعة فوا فى سفح البرانس ، حيث قضي بيير هناك الاثنين والعشرين عاما الأولى من عمره ، يتعلم اليونانية واللاتينية والكلفنية .

وكان شابا رقيق الشعور سريع التاثر • وفى ١٦٦٩ أرسل الى الكليـــة اليسوعية فى تولوز ليتلقى أحسن تعليم كلاسيكى يمـكن أن توفـــره له أسرته ومواردها ، فأحب أساتذته حبا جمـا ، وسرعان ما تحـــول الى الكثلكة فى حماسة بلغت به الى درجة محاولته تحويل أبيه وأخيه اليها• فاحتملاه فى صبر وجلد ، وبعد ذلك بسبعة عشر شهرا عاد الى مذهب أبيه • ولكنه بات الآن هرطيقا مرتدا • فكان عرضة لملاحقة الكنيســة الكاثوليكية له • فارسله أبوه حماية له منها ، الى الجامعة الكلفنية فى جنيف (١٦٧٠) ، أملا فى أن يلتحق بيير بخدمة الكنيسة البروتستانتية وهناك على أية حال وقع بيل على مؤلفات ديكارت ، وبدأ يتسرب الى نفسه الشك فى كل أشكال المسيحية •

وبعد استكمال دراسته أقام فى جنيف وروان وباريس مشـــتغلا بالتدريس ، ثم ارتقى الى استاذ للفلسفة فى معهـــد الهيجونوت فى سيدان (١٦٧٥) • ولكن المعهد أغلق فى ١٦٨١ بأمر من لويس الرابع عشر كجزء من حرب الاستنزاف ضد مرسوم نانت ، ووجد بيير له ملجأ فى روتردام ، والتحق بوظيفة استاذ للتاريخ والفلسفة فى « المدرسـة الكبيرة » ، أكاديمية البلدية • وكان من أوائل المفكرين المهاجـــرين الكثيرين الذين اتخذوا من الجمهورية الهولندية فى ذاك الزمان قلعة للفكر المستقل •

وكان راتبه ضئيلا ، ولكنه قنع بالعيش البسيط ما دام فى مقدوره الحصول على الكتب • ولم يتزوج قط ، مؤثرا المكتبة على الزوجة • ولم يكن غير مدرك لمفاتن النساء وأفضالهن ، وربما شكر لأية سـيدة فاضلة كريم عنايتها به ، ولكنه عانى طوال حياته من الصداع ، ومن « دوار نصفى » أو انقباض فى الصدر واكتئاب يلازمه ، ولا ريب فى أنه تردد فى اشراك قرينة له فيما يعانيه من علل وأمراض • ومهما يكن من أمر فقد كانت تمر به لحظات ينزع فيها الى السخرية ، ذلك أنه عندما حاول الأب ميمبورج اليسوعى الفرنسي فى كتـــابه « تاريـخ الكلفنية » أن يبرهن على أن القساوسة الكاثوليك كانوا قد قبلوا التحول الى البروتستنتية رغبة فى الزواج ، تساءل بيل : فيف يمكن أن يكون هذا ، « فاية محنة أكبر من الزواج ؟ (١٢) » •

وعرض بيل كتاب ميمبورج فى مجلد من الرســائل ظهـــر فى

١٦٨٢ • وعجب كيف يتسنى لرجل التزم التزاما قويا بمذهب معين ، أن يكتب تاريخا صادقا نزيها غير متحيز • كيـــف يمكن أن يوثق فى مؤرخ مثل ميمبورج نعت معاملة لويس الرابع عشر للهيجونوت (قبل ١٦٨٢) بانها معاملة « عادلة رقيقة كريمة ؟ » ووجه الخطـاب الى لويس الرابع عشر ، فكتب من هولنده التى كانت فرنسا قد اجتاحتها حديثا بشكل وحشي أثيم ، متسائلا : أى حق لملك فى فرض مذهبـــه الدينى على رعاياه ؟ واذا كان له هذا الحق ، لكان للأباطرة الرومان ما يبرر اضطهادهم المسيحية • وذهب بيل الى أن الضمير هو وحده الذى يحكم عقيدة المرء • ورد ميمبورج على ذلك ردا حاسما بالحصول على أمر من لويس الرابع عشر باحراق أية نسخة توجد فى فرنسا من كتاب بيل علنا بواسطة السلطات المختصة •

وفى العام نفسه ، ١٦٨٢ ، أصدر بيل أول أعماله الهامة « آراء شتى حول المذنب » وهو النجم المذنب الذى كان قد عبر السـماء فى ديسمبر ١٦٨٠ • وتولى الفزع أوربا بأسرها لهذا النجم الذى بدا أن النار فى ذنبه تنذر باحراق العالم • اننا اذا رجعنا الى الوراء لنشارك ذاك العصر خوفه وجزعه ـ حين فسر الكاثوليك والبروتستانت عـلى السواء هذه الظاهرة بأنها نذر الهية ، واعتقدوا أن الله سيرسل صاعقة من السماء على الأرض الخاطئة الآثمة فى أية لحظة ، فاننا عندئذ فقط نستطيع أن ندرك مدى الرعب الذى انتاب الناس عند ظهور هذا اللهب على غير انتظار ، أو أن نقدر مدى الشجاعة والحكمة فى تعليقات بيل عليه • ان العلامة ملتون نفسه كان قد قال حديثا « ان النجـم المذنب ينشر من شعره المروع الطاعون والحرب » (١٣) • ان بيل أسس بحثه على الدراسات الحديثة التى أجراها الفلكيون (ولكن لم يكن نجم هالى ١٦٨٢ قد ظهر بعد) ، ومن ثم أكد لقرائه أن النجوم المذنبة تتحرك فى السموات طبقا لقوانين ثابتة وليس لها أية علاقة بشـــقاء البشر أو سعادتهم • ورثى لانتشار الخرافات والحاحها على عقول الناس • « ان الذى يقفو زلات العباد ملتمسا أسبابها لن ينتهى من ذلك أبدا (١٤) »• ونبذ الايمان بكل المعجزات الا ما ورد منهـــا فى العهـــد الجـــديد « الانجيل » ، (ولولا هذا الاستثناء ، لما سمح بطبـــع الكتـــاب فى هولنده) • « فى الفلسفة الصحيحة ، ليست الطبيعة الا الله نفسه ،

يعمل وفق قوانين معينة استنها سبحانه وتعالى بمحض ارادته • ومن ثم فان اعمال الطبيعة هى من آثار قدرة الله وقوته مثل المعجزات سواء بسواء ، كما أن هذه الأعمال تدل على وجود قدرة عظمى مثل تلك التى تدل عليها المعجزات • وأن خلق انسان وفق قوانين التناسل الطبيعية ، لا يقل صعوبة عن قيامة انسان من بين الأموات (معجزة المسيح) (١٥)•

وانتقل بيل فى جرأة الى واحدة من أكثر مسائل التاريخ تعقيدا : هل يمكن أن يكون هناك علم أخلاق طبيعى ـ هل يمكن الاحتفاظ بقانون أخلاقى دون عون من معتقد خارق للطبيعة ؟ هل أدى الالحاد الى أفساد الأخلاق ؟ يقول بيل : اذا كان الأمر كذلك ، فلا بد أن نستنتج من الجريمة والفساد وسوء الخلق السائد فى أوربا أن معظم المسيحيون ملحدون فى قرارة أنفسهم • ان اليهود والمسلمين والمسيحين والكفار يختلفون فى عقائدهم الدينية ، لا فى أفعالهم وتصرفاتهم • وظاهر أن المعتقد الدينى ـ والأفكار بصفة عامة ـ ليس لها الا تأثير ضئيل على السلوك ، فهذا السلوك ينبع من الرغبات والانفعالات ، وهى عادة أقوى من المعتقدات • وأى تأثير كان لتعاليم المسيح على مفهوم الأوربيين للشجاعة والشرف ؟ ـ ذلك المفهوم الذى اختص بأعظم المديح والثناء الانسان الذى يثأر فى عنف وقوة للاساءة والأذى ، والذى يبرع فى فنون الحرب باختراع ما لا يحصي من الآلات حتى يكون الحصار أشد فتكا وارهابا وازعاجا • ان الكفار يتعلمون منا استخدام أسلحة أقوى (١٦) • وخلص بيل من هذا الى أن مجتمعا من الملحدين قد لا يكون أسوأ خلقا من مجتمع من المسيحيين • ليس الذى يحمل معظمنا على التزام جادة الصواب والنظام هو الخشية من الجحيم ، وهذا أمر بعيد غير يقينى ، قدر خوفنا من رجل الشرطة ومن القانون ، ومن ادانة المجتمع لنا • ومن العار الذى يلحق بنا ، ومن الجلاد ، خل بيننا وبين هذه العوائق تعم الفوضي فاذا تمسكت بها لأمكن انه يقوم مجتمع من الملحدين والحق أنه قد يضم رجالا كثيرين على درجة رفيعة من الشرف ونساء كثيرات طاهرات عفيفات (١٧) • وانا لنسمع عن نماذج من هؤلاء الملحدين فى الأزمنة القديمة ، مثل أبيقور وبلينى الأكبر وبلينى الأصغر ، وفى العصور الحديثة مثل ميشيل دى لوبيتال وسبينوزا ، (أما انحطاط أخلاق الفرد العادى عما هى عليه اذا لم تكمل الديانة القانون ، فتلك مسألة لم يتعرض لها بيل) •

ونشر موضوع « النجم المذنب » غفلا من اسم المؤلف . واتخذ بيل نفس الحيطة حين افتتح واحدة من أكبـر الدوريات فى ذلك العصر : « أنباء جمهورية الأدب » . وظهر العدد الأول منهـا فى مائة وأربع صفحات ، فى امستردام فى مارس ١٦٨٤ وعرضت المجلة أن تزود قراءها بكل التطورات الهامة فى الأدب والعلوم والفلسفة والبحوث والكشوف والتاريخ الرسمى . ومبلغ علمنا أن بيل نفسه كتب محتويات المجـلة شهرا بعد شهر لمدة ثلاثة أعوام . وقد ندرك مبلغ الجهد الذى استلزمه هذا العمل . وسرعان ما أصبح استعراضه للكتب ذخيرة قوية فى دنيـا الأدب . وفى ١٦٨٥ جمع أطراف شجاعته وأعلن أنه المؤلف . وبعد ذلك بعامين تدهورت صحته فترك تحرير المجلة لآخرين غيره .

وفى تلك الأثناء وقع أربعة من أسرة بيل فريسة اضطهاد الهيجونوت فى فرنسا . وكنتيجة مباشرة أو غير مباشرة لعنف اضطهـاد القـوات الفرنسية للبروتستانت ، ماتت أمه فى ١٦٨١ ، ومات أبوه فى ١٦٨٥ ، وفى نفس العام سجن أخوه ثم قضي نحبه نتيجة للتعذيب والقسوة . وبعد ذلك بستة أيام ألغى مرسوم نانت . وصعق بيل لهذه التطورات ، ولم يكن له ، مثل فولتير ، من سلاح غير قلمه ، وفى ١٦٨٦ تحدى الطغاة المستبدين باحدى الروائع فى أدب التسامح الدينى .

وكان عنوان هذه الرسالة « تعليق فلسفى على كلمات يسـوع المسيح » : اخرج الى الطرق والسـياجات وألزمهـم بالدخـول . (لوقا ١٤ ـ ٢٣) .

وكان هؤلاء الطغاة الوحشيون قد التمسـوا سندا لاجراءاتهـم التعسفية فى القصة التى رواها المسيح عن الرجل الذى قال لعهده ، حين لم تلب ضيوفه دعوته الى عشاء عظيم أعده لهم « اخرج عاجـلا الى شوارع المدينة وأزقتها ، وأدخل الى هنا المساكين والجـدع . والعرج والعمى .. .. وألزمهم بالدخول حتى يمتلىء بيتى (١٨) » (انجيل لوقا ـ ١٤ : ١٦ ـ ٢٣) . ولم يجد بيل مشقة فى ايضاح أن هذا الكلام ليس له علاقة بارغام الناس على اتباع دين أو مذهب واحد ، بل العكس ، وجدنا أن محاولة فرض معتقد دينى موحد قد خضـب نصف أوربا بالدماء ، وان تباين المذاهب الدينية فى الدولة حال دون

وصول أحدها الى درجة من القوة تمكنه من الاضطهاد . وفضلا عن هذا : من منا يثق بأنه على حق الى حد يستند اليه فى ايذاء من يخالفونه ؟ واستنكر بيل اضطهاد البروتستانت للكاثوليك ، والمسيحيين لغير المسيحيين ، والعكس بالعكس سواء بسواء . وعلى النقيض من لوك ، اقترح بيل أن تمتد حرية العبادة أواللا عبادة الى اليهود والمسلمين والمفكرين الاحرار ونسي ما ذهب اليه من قبل من أن الملحدين يحتمل أن يكونوا مواطنين صالحين مثل المسيحيين ، فنصح بعدم التسامح مع الطوائف التى لا تؤمن بالعناية الالهية وبوجود اله يحاسب ويعاقب ، فان هؤلاء لا تطهر من نفوسهم خشية الله ومن ثم قد يجعلون من الصعب تطبيق القانون (١٩) . أما بالنسبة للآخرين فلا يجوز التسامح مع المتعصبين منهم . فهل يجوز لدولة بروتستانتية أن تتسامح فى أن تقوم فيها كاثوليكية دافعت عن التعصب على اعتبار أن الكثلكة وحدها هى العقيدة الحقة الصحيحة ؟ . ورأى بيل أن الكاثوليك فى مثل هذه الحالات ـ « يجب أن يسلبوا سلطة الحاق الأذى والضرر بغيرهم ... ومع ذلك فانا لا أقر تعرضهم للاساءة والاهانة ، أو الانتقاص من تمتعهم بحق الملكية ، أو حق ممارستهم لديانتهم ، ولا أقر حرمانهم من اللجوء الى القانون (٢٠) .

ولم يكن البروتستانت أكثر ارتياحا من الكاثوليك لبرنامج التسامح هذا ، من ذلك أن بيير جوريو ـ الذى كان صديق بيل وزميله فى العمل فى سيدان ، وكان الآن راعيا لأبرشية كلفنية فى روتردام ـ هاجمه فى بحث بعنوان : « حقوق السيدين فى أمور الدين ـ الضمير والامير ـ . (١٦٨٧) وذهب جوريو الى هدم نظرية عدم الاهتمام بالأديان ، وفكرة التسامح العام والشامل ، معارضا كتابا بعنوان « تعليقات فلسفية » . واتفق مع البابوات فى أن للحكام أو الملوك الحق فى القضاء على أية عقيدة زائفة ، وقد روعه بخاصة التسامح مع اليهود والمسلمين والسوسنيين والوثنيين . وفى ١٦٩١ أهاب جوريو بعمد مدينة روتردام أن يفصلوا بيل من عمله ، فرفضوا . ولكن فى ١٦٩٣ جاءت الانتخابات بهيئة حكام جديدة ، وجدد جوريو حملته متهما بيل بالالحاد ، فطرد من وظيفته ، فقال الفيلسوف « اللهم انقذنا من محكمة التفتيش البروتستانتية ، فلن تنقضي خمس أو ست سنوات حتى تشتد

وطئتها الى درجة يتطلع الناس معها الى عـــودة محـــاكم التفتيش الكاثوليكية (٢١) .

وسرعان ما استرد بيل هدوء نفسه وعاد الى طبيعته ، فتكيف مع الظروف ، وكان له كل العزاء والسلوى فى أنه استطاع أن يخصص كل ساعات عمله لانجاز « قاموس » العصر الذى كان قد شرع فى تاليفه فعلا . وراض نفسه على العيش على مدخراته ، وعلى بعض مكافآت شرفية من ناشرى كتبه . وتلقى عروضا بالرعاية من سفير فرنســـا فى هولنده ومن ثلاثة من نبلاء الانجليز يحملون لقب ارل ، ولكنه رفض فى الطف وكياسة ، بل انه رفض مائتى جنيه عرضها عليه ارل شروزبرى نظير اهداء القاموس اليه . وكان له أصدقاء ، ولكنه لم يكن له من وسائل اللهو والتسلية الا القليل . « لم أهتم بالملاهى العامة أو الألعاب أو الرحلات الريفية ... أو غيرها من سباب الترفيه والمتعـــة . ولم أضيع وقتى فيها ولا فى المهام المنزلية ، ولم أطمع قط فى منصب ... انى أجد كل الحلاوة والراحة فى الدراسات التى شغلت نفسي بها ، وهى كل متعتى وبهجتى انى سأغنى لنفسي وللموزيات (ربات الشعر والفنون والعلوم (٢٢) » .

وهكذا قبع هادئا فى حجرته يعمل أربع عشرة ساعة فى اليوم ، يضيف صحيفة الى صحيفة فى المجلدات الغريبة التى أصبحت منبـــع « الاستنارة » . وظهر المجلدان الضـــخمان فى ٢٦٠٠ صـــحيفة فى روتردام فى ١٦٩٧ تحت اسم « قاموس تاريخى نقدى » ، ولم يكن معجم مفردات ، بل دراسة نقدية للأشـــخاص والأماكن والآراء ، فى التاريخ والجغرافيا وعلم الاساطير واللاهوت والأخلاق والأدب والفلسفة وصاح وهو يدفع بالتجارب النهائية الى المطبعة « سبق السيف العذل » وكان هذا العمل مقامرة ثقيلة بالحياة وبالحرية . لأنه احتـــوى على هرطقات أكثر مما ضم أى كتاب آخر فى هذا القرن ، وربما أكثر من حفيده ، « موسوعة » ديدرو ودالمبرت (١٧٥١) .

وكان بيل قد بدأ وأمامه هدف محدود هو تصحيح الأخطاء وسد النقص فى « القاموس التاريخى الكبير » الذى كان موريرى قد أصدره فى ١٦٧٤ من وجهة النظر الكاثوليكية التقليدية ، ولكن الهدف اتسع

مع تقدم العمل • ولم يزعم قط أنه كتب دائرة معارف ، فلم يتعرض لشيء ليس لديه ما يقول عنه • ومن ثم يتضمن « القاموس » أية مقالات عن شيشرون ، بيكون ، مونتانى ، جاليليو هوراس ، نيرون ، توماس مور ، وأغفل العلم والفن الى حد كبير ، ومن ناحية أخرى كانت هناك مقالات عن الافذاذ غير البارزين مثل أكيبا ، وأوربيل اكوستا ، وايزاك أبرابانل • ولم تخصص المساحات الكبيرة طبقا للأهمية التاريخية ، بل تبعا لرغبة و هوى بيل نفسه ، وعلى هـذا فان ارزم الذى خصص له موريرى صحيفة واحدة ، أفرد له بيل خمس عشرة صحيفة ، كما أفرد لأبيلارد ثمان عشرة • وكان الترتيب أبجديا ، ولكنـه أشـبه بترتيب التلمود ، وكانت الحقائق الأساسية مثبتة فى النص ، ولكن فى كثير من الأحيان أضاف بيل حاشية فى حروف صغيرة ، أطلق فيها لنفسه العنان للدخول « فى متاهة من البراهين والمناقشات •• بل فى بعض الأحيان مجموعة كبيرة من تأملات فلسفية » • وفى وسط هذه الحروف الصغيرة الدقيقة ستر بيل هرطقاته عن النظرة العامة • وأثبت مراجعه فى الهوامش ، وهذه فى جملتها تنبىء عن سعة اطلاع ودرس يندر أن تتسع لهما حياة فرد • وتضمنت بعض الحواشي التى كتبها بيل بعض النوادر المكشوفة البعيدة عن الاحتشام ، أملا فى أن يزيد هذا من مبيعات الكتاب • ولكن لا ريب فى أنه وجد فيها هى نفسها متعة لشخصه وهو وحيد عاكف على الدرس والبحث • وأولع القراء مقدرين شاكرين ، بأسلوبه اللاذع الأنيق المتجول بين أبواب المعرفة ، وعرضه الماكر لنقاط الضعف فى المذاهب الدينية السائدة ، واعترافاته الصريحة الجريئة بالعقيدة الكلفنية الصحيحة • وبيعت الطبعة الأصلية وعددها ألف نسخة عن آخرها فى أربعة أشهر •

وكانت طريقة بيل هى أن يوازن بين المراجع ، ويتتبع الحقائق ويشرح الآراء المعارضة والمتناقضة ، وكان يتمشي مع العقل الى آخر الشوط حتى اذا لم تلتئم النتائج التى يتوصل اليها مع العقيدة الصحيحة أو أساءت اليها نبذ النتائج فى تقى وورع • انحيازا الى جانب الأسفار المقدسة والايمان • وتساءل جوريو غاضبا « اذا عرضت عبارة أو لفظة تؤيد الايمان ضد العقل • فهل لها أن تحمل الناس على التخلى عن الاعتراضات التى قال بيل بأنه لا سبيل الى دحضها (٢٣) » • وفيما

عدا هذا فان ترتيب القاموس هزيل • وتندرج بعض أبحـــاثه الكبرى تحت موضوعات تافهة أو عنوانات مضللة • « أنا لا أستطيع أن أطيل التأمل فى موضوع واحد بانتظام شديد ، فأنا مولع أشد الولع بالتغيير ، وغالبا ما أتحول عن الموضوع ، وأقفز الى مواضع قد يكون من الصعب تلمس الخروج منها (٢٤) • وكانت المناقشة عادة مهذبة متواضـــعة بعيدة عن التزمت ودية ، ومهما يكن من أمر ، فان بيل كان من حين لآخر ، لاذعا حاد اللسان ، ومن ذلك أن مقاله عن القديس أوغسطين لم يغفر للكلفنى العظيم طول انصرافه عن العفة ولاهوته الكئيب وتعصبه الدينى • وأعلن بيل ارتضاءه الكتاب المقدس على أنه كلمة الله ، ولكنه أشار فى خبث الى أنه يجدر بنا ألا نؤمن اطلاقـــا ببعض قصص المعجزات الا اذا صدرت عن شخصية ممتازة • ووضع بعض الأساطير الوثنية ـ ابتلاع الحوت لهركيوليز مثلا ـ جنبا الى جنب مع القصص الماثلة فى الكتاب المقدس ، ثم ترك القارىء فى حيرة : لماذا نرفض قصة ونقبل أخرى • وفى واحدة من أشهر مقالاته أنكر مذابح الملك داود وخياناته واغتصابه للنساء • وترك القارىء يعجب ويتساءل : لماذا يمجد المسيحيون مثل هذا الوغد المتوج بأنه من أجداد المسيح •

ووجد بيل أنه من الأيسر عليه أن يبتلع يونس والحوت معا (أن يصدق القصة) عن أن يقبل سقوط آدم وحواء • كيف يتسنى لرب قدير أن يخلقهما وهو يعلم سلفا أنهمـــا ســـيلطخان الجنس البشرى كله بخطيئتهما الأولى ويلحقـــان به من البؤس والشـــقاء ما لا يحصى ولا يقدر :

> اذا كان الانسان مخلوقا من أصل طيب غاية الطيبة ، بالغ القداسة ، قديرا غاية القدرة ، فهل يمكن أن يتعرض للأمراض ، للحر والبرد ، للجوع والعطش ، للألم والحزن ؟ وهل يمكن أن يكون لديه مثل هذه النزعات السيئة الكثيرة ؟ وهل للقداسة الكاملة أن تنتج مخلوقا مجرما ؟ وهل لهذا الخير التام أن ينجب مخلوقا تعسا ؟ هـلا يتسنى لهـــذه القدرة ؟ مع الخير الذى لا حدود له ، أن تزود خلقها بأفضل الأشياء فى وفرة وسخاء وتباعد بينه وبين كل عـدوان أو ازعاج واساءة (٢٥) ؟ •

ان اله سفر التكوين اما أن يكون قاسيا أو ذا قدرة محـــدودة . وعلى هذا شرح بيل فى كثير من التعاطف والقوة مفهـــوم المانوية من الهين ، للخير والشر (النور والظلام) يتصارعان للسيطرة على العالم وعلى الناس . وبما أن « البابويين والبروتستانت متفقون على أن قلة ضئيلة من الناس هى التى تنجو من العقاب السرمدى » فقد يبدو أن الشيطان سيكسب المعركة ضد المسيح ، وفوق ذلك ، فاذ انتصاراته أبدية لأن رجال اللاهوت يؤكدون لنا أنه لا منجاة من النـــار . وحيث أنه هناك ، أو سيكون هناك ، فى الجحيم عدد من الأنفس أكبر مما هو فى الجنة ، « فان الذين فى الجحيـــم سيلعنون دوما اســم الرب ، فان المخلوقات التى تكره الرب ستكون أكثر ممن يحبونه » . وانتهى بيل ، فى خبث ، الى القول « ينبغى ألا نركن الى المانوية حتى نقر أولا مبدأ الرفع من شأن الايمان والعقيدة والانتقاص من قدر العقل (٢٦) .

وعبرت مقالة بيل عن « بيرهو » عن الشـــكوك فى التثليث ، « لأن الشيئين اللذين لا يختلفان عن ثالث ، لا يفترق الواحد منهما عن الآخـــر (٢٧) . أما بالنســـبة لتحول الخبز والنبيذ ـ لا يمـــكن أن ودمه ، فان أحوال المادة ـ ومن ثم ظهور الخبز والنبيذ ـ لا يمكن أن توجد بدون المادة التى تعدل منها (٢٨) . وبالنسبة لتراث كل الناس فى خطيئة آدم وحواء ، يقول بيل : « ما دام المخلوق غير موجـــود فلا يمكن أن يكون شريكا فى عمل خاطىء (٢٩) . ولكنه وضع كل هذه الشكوك على ألسنة آخرين غيره ، ثم استنكرها هو باسم الدين . واقتبس بيل « باعتبار أن هذا من أشد ما قال المارقون زيفا » أن « الدين ليس الا مجرد بدعة من عمل الانسان ، ابتدعها الملوك ليلزموا رعاياهم بالطاعة والاذعان لهم (٣٠) . وفى المقال الذى كتبه عن سبينوزا تعمـــد أن يتهم اليهودى الذى يعتنق مذهب وحدة الوجود بالالحاد ، ومع ذلك فانه لابد أنه عثر عند هذا الفيلسوف على شيء يســـحر لبه ويستوقف نظره ، لأن هذا أطول مقال فى القاموس . وزعم بيل أنه يؤكد لرجال اللاهوت من جديد أن كل هذه الشكوك التى أوردها فى كتابة لا تهدم العقيدة الدينية ـ لأن هذه مسائل فوق مستوى عقول الناس (٣١).

وذهب فاجويه الى أن بيل « ملحد بغير جـــدال (٣٢) ولكن قد

يكون أكثر أنصافا أن ندرجه فى عداد الشكاكين ، وأنه كان كذلك يشك فى مذهب الشك • ومن حيث أن الصفات الثانوية للحس ذاتية الى حد كبير ، فان العالم الموضوعى (الخارجى) يختلف كل الاختلاف عما يبدو لنا • « ان الطبيعة المطلقة للأشياء غير معروفة لنا ، وكل ما نعرفه هو بعض علاقات بعضها ببعض (٣٣) • وفى ٢٦٠٠ صحيفة من الاستنتاج والحجج والبراهين اعترف بضعف العقل ، فان العقل ، مثل الحواس التى يعتمد عليها ، قد يخدعنا • لأنه غالبا ما يتغشاه الانفعال• والرغبة والهوى ، لا العقل ، هما اللذان يحددان سلوكنا • فالعقل يمكن ن يعلمنا أن نشك ولكنه قليلا ما يحركنا للعمل •

ان أسباب الشك مشكوك فيها هى الأخرى • ومن ثم يجب على الانسان أن يشك فيما اذا كان ينبغى له أن يشك • أية فوضي • وأى عذاب للذهن •• •• ان عقلنا يؤدى بنا الى أن نتيه ونهيم على وجوهنا على غير هدى • لأنه حين يكشف عن أكبر قدر من حدة الذهن والدقة ، يلقى بنا فى الهاوية ••• ان العقل البشرى أداة هدم ، لا أداة بناء ، انه لا يصلح الا ليبدأ الشك ، ويجول وينتقل هنا وهناك ليديم الصراع (٣٤) •

وبناء على هذا أشار بيل على الفلاسفة ألا يقيموا للفلسفة وزنا كبيرا ، ونصح المصلحين بألا يتوقعوا كثيرا من الاصلاح • وحيث أنه واضح أن الطبيعة الانسانية هى هى على مر القرون ، فانها بفعل الجشع وحب المشاكسة والشهوة الجنسية ، ستظل تثير من المشاكل ما يفسد المجتمعات ويؤدى الى فناء أية مدينة فاضلة (يوتوبيا) فى مهدها • ان الناس لا يتعلمون من التاريخ ، وكل جيل يتمخض عن نفس الأهواء والأوهام الخادعة والجرائم • ومن ثم فان الديموقراطية خطأ فى التقدير قدر ما هى حقيقية ، فالسماح للدهماء المشغولين المضللين المتهورين باختيار الحكام ورسم السياسة هو انتحار للدولة • وأى نوع من الملكية أمر ضرورى ، حتى فى ظل أشكال ديموقراطية (٣٥) • والتقدم أيضا وهم وخداع ، اننا خطأ نحسب الحركة تقدما ، ولكن يحتمل أنها مجرد تذبذب (٣٦) • أن خير ما نأمل

فيه ، هو حكومة يمكنها ، على الرغم من أنها مزودة برجال شيمتهم الفساد ويعوزهم الكمال ، أن تسن لنا من القوانين ما يكفل لنا أن نزرع حدائقنا فى أمان وننصرف الى دراســـاتنا وهواياتنا فى هـــــدوء وسلام .

ولم يستمتع بيل بمثل هذا الهدوء فى السنوات التسع التى بقيت له فى حياته ، وحين انتقل قراؤه من متن الكتاب الى حواشيه المطبوعة بحروف صغيرة جدا ثارت موجة من الاستياء بينهم . ودعـــا مجلس كنيسة والون فى روتردام بيل ـ وهو عضو فى مجمعها ـ للمثول أمامه ليرد على الاتهامات الموجهة اليه بأن قاموسه تضمن « تعبيرات ومسائل غير لائقة ، وكثيرا جدا من الاقتباسات الفاجرة ، وملاحظات عدائية عن الالحاد وأبيقور ، وبخاصة مقالات كريهـــة مثيرة للاعتراض على داود وبيرهو والمانويين . ووعـــد بيل « بمزيد من التأمل فى مذهب المانوية حتى اذا عثر على أية ردود ، أو أمده قساوســة المجلس بشيء منها ، فانه « يسعده أن يضعها فى أحسن صيغة ممكنـــة (٣٧) » . وفى الطبعة الثانية من القاموس (١٧٠٢) أعاد كتابة المقال الوارد عن داود وخفف من حدته . ولم يهدأ روع جوريو ، وجدد الحملة على بيل ، وشن عليه عى ١٧٠٦ هجوما عنيفا تحت عنـــوان « اتهـــام فيلسوف روتردام ومهاجمته وادانته » .

وانهارت صحة بيل بعد هذه الطبعة الثانية . وعانى مثـــل سبينوزا من السل . وفى تلك السنوات لازمه السعال بشكل دائم تقريبا ، وانتابته الحمى الراجعة ، وزاد الصداع من اكتئابه وجزعه . واقتنع بألا أمل فى البرء من علتـــه ، استسلم للمـــوت ، وزاد اعتكافه فى حجرته ، واشتغل ليل نهار فى اعداد رده على ناقديه . وفى ٢٧ ديسمبر ١٧٠٦ أرسل الصيغة النهائية الى المطبعة . وفى صباح اليوم التـــالى وجده أصدقاؤه ميتا فى فراشه .

وانتشر تأثيره طوال القرن الثامن عشر . وأعيد طبع قاموســـه عدة مرات ، حتى أصبح مصدر ابتهاج خفى لآلاف العقول الثـــائرة . وما وافى عام ١٧٥٠ حتى كان القاموس قد طبع تسع مرات باللغـــة الفرنسية ، وثلاث مرات بالانجليزية ومرة بالألمانية . وحاول المعجبون

به فى روتردام أن يقيموا له تمثالا الى جوار تمثال ارزم (٣٨) ، وأغروا الناشرين بطبع المقال الأصلى عن داود • وعلى مدى عشر سنين من وفاته كان الطلاب يقفون صفوفا فى مكتبة مازاران فى باريس حتى يأتى دورهم فى قراءة القاموس (٣٩) • وجاء فى تقرير عن المكتبات الخاصة أن الطلب عليه كان أكثر من طلب أى كتاب آخر (٤٠) • وقد أحس بتأثيره كل مفكر ذى شأن تقريبا • وكان معظم كتاب ليبنتز « الفلسفة الالهية » أو تبرير حكمة العدالة الالهية فى وجود الشر ، محاولة صريحة للرد على بيل • كذلك نبع منه كتابات اسنج عن تحرير العقل ودفاعه عن التسامح ـ ويحتمل أن فردريك الأكبر استمد تشككه أصلا من بيل ، لا من فولتير ، وأطلق على القاموس « عصارة الاحساس السليم » (٤١) • واقتنى أربع مجموعات منه فى مكتبته ، وأشرف على اصدار طبعة رخيصة موجزة منه فى مجلدين ليجذب عددا أكبر من القراء (٤٢) • وكان تأثير بيل على شافتسبرى ولوك أخف ، وعرفه كلاهما فى هولنده ، وسار لوك فى « رسالة التسامح » (١٦٨٩) على خطى بيل فى « التعليقات » (١٦٨٦) •

ولكن أعظم تأثير لبيل كان بطبيعة الحال على فلاسفة الاستنارة وكان فطامهم على القاموس • ومن الجائز أن مونتسكيو وفولتير أخذا عنه أسلوب الاستشهاد بالمقارنات والنقد الآسيوى للنظم الأوربية • ولم تكن « دائرة المعارف » (١٧٥١) ، كما حكم فاجويه « مجرد طبعة منقحة مزيدة قليلا من قاموس بيل (٤٣) • ولكن كثيرا من وجهة نظرها وآرائها التوجيهية نبعت من هذين المجلدين ، كما أن المقال الذى كتب فى دائرة المعارف عن التسامح كثيرا ما أحال القارىء على قاموس بيل على اعتبار أنه « وفى الموضوع حقه » • كما أن ديدرو اعترف فى صراحته المعهودة ، بفضل بيل عليه ، وحياه بأنه « أعظم شارح مهيب لمذهب الشك فى العصور القديمة والحديثة معا (٤٤) • أما فولتير فكان بيل ولد من جديد ، مع رئتين أصح ومزيد من النشاط والطاقة والسنين والثراء والذكاء • وأطلق بحق على « القاموس الفلسفى » أنه ترديد لقاموس بيل (٤٥) • وكثيرا ما اختلف قرد فرنى الفاتن عن بيل ، مثال ذلك أن فولتير ذهب الى أن الدين كان قد ساعد على تشجيع الأخلاق ورعايتها ، وأنه لو أن بيل كان لديه خمسمائة أو

ستمائة فلاح ليحكمهم . لما تردد فى أن هناك الها يعاقب ويكافىء (٤٦)، ولكنه اعتبر بيل « أعظم منطيق جدلى الف (٤٧) » وجملة القول ، كانت فلسفة فرنسا فى القرن الثامن عشر هى بيل فى تكاثر متفجر . ان القرن السابع عشر بدأ ، بهوبز وسبينوزا ، وبيل وفونتيل ، الحرب الطويلة المريرة بين المسيحية والفلسفة ، تلك الحرب التى بلغت ذروتها فى سقوط الباستيل وعيد الهة العقل .

٥ ـ فونتنيل : ١٦٥٧ ـ ١٧٥٧ :

فى السنوات الأربعين الأولى من حياته التى امتدت مائة عام ، شن برنارد لى بوفييه دى فونتنيل ، حرب الفلسفة ، مستقلا عن بيل ، وأحيانا قبله ، وواصل الحرب ، بلا هوادة ، طيلة نصف قرن بعد وفاة بيل . وهو احدى ظواهر طول العمر ، وملأ الفراغ بين بوسويه وديدرو ، ونقل الى معترك الحياة العقلية فى القرن الثامن عشر شكوكية القرن السابع عشر الأكثر اعتدالا وحرصا .

ولد فى روان فى ١١ فبراير ١٦٥٧ ، ضئيلا هزيلا الى حد أنهم عمدوه فور ولادته خشية أن يموت قبل أن ينقضي عليه اليوم . وظل على هذه الحالة من الضعف طوال حياته ، كانت رئتاه عليلتين وكان يبصق دما اذا أجهد نفسه حتى فى لعب « البليارد » ، ولكن بالقصد والاعتدال فى استخدام قواه الا بمقدار والامتناع عن الزواج ، وكبح جماح شهواته وأهوائه ، والاغراق فى النوم ، استطاع أن يعمر بعد كل معاصريه ، وتذكر موليير حين كان يتحدث مع فولتير .

وكان به بعض الميل الى الأدب مثل ابن شقيق كورنى . وكذلك كان يحلم هو الآخر بالمسرحيات ، ولكن الروايات والأوبرات التى ألفها ، وأناشيده الرعوية وقصائده الغزلية ومقطوعاته ، كانت تعوزها العاطفة فماتت من البرودة . وكان الأدب الفرنسي يفقد الفن ويكسب الأفكار . ولم يجد فونتنيل نفسه الا حين وجد أن العلم يمكن أن يكون رؤيا أكثر ادهاشا من سفر الرؤيا ، وأن الفلسفة معركة تثير الأسي ، وتفوق كل الحروب . ولم يكن ذلك لأنه محارب ، فقد كان رقيقا الى حد لا يقوى معه على الصراع ، شغوفا بالدنيا لا يحب أن يفقد صبره أو يتملكه الغضب فى المناقشة ، وواعيا

كل الوعى لنسبية الحقيقة فلا يقيد فكره المطلق • ومع ذلك أشـــعل نيران الحرب (٤٨) • وحيثما سار فى محادثاته المختلفة مع مركيزته الوهمية ، هب جيش الاستنارة بفرسـان فولتير الخفيفـــة السريعة الاندفاع ومشاة دولباخ الثقيلة ، ومهندسي دائرة المعارف العسكريين الخبراء فى بث الالغام ، بالاضافة الى مدفعية ديدرو •

وكان أول اقتحامه مجال الفلسفة رسالة من خمس عشرة صحيفة « أصل الخرفات » والحق أنها كانت استقصاء سيولوجيا (اجتماعيا) عن نشأة الالهة • ونحن لا نكاد نصدق كاتب سيرة حياته فى أن الموضوع كتب وهو سن الثالثة والعشرين ، ولو أن مخطوطته تركت فى حرص وحذر ، حتى خفت وطأة الرقابة فى ١٧٢٤ • وتكاد تكون هذه الرسالة « عصرية » فى روحها ، تعقبت الاساطير ، لا الى مجرد اختراع الكهنة لها ، بل الى تخيلها البدائى ، وفوق كل شيء ، الى استعداد العقول البسيطة لتجسيد العمليات ، فان نهرا فاض لأن الها صب ماءه ، فكل عمليات الطبيعة من عمل الأرباب •

اعتقد الناس أن كثيراً من العجائب فوق قدرتهـم : حلول الصواعق وقصف الرعود ، وهبـــوب الرياح واثارة الأمواج •• •• وتخيل الناس كائنات أقوى منهم ، قادرة على أحداث هذه الآثار • وكان لابد لهذه الكائنات الأسمى أن تتخذ شكلا آدميا ، فأى شكل آخر يمكن تصوره ؟ ••• وعلى هذا كان الأرباب آدميين ، ولكن أسبغت عليهم قدرة عليا •• •• وما كان فى مقدور الناس البدائيين أن يدركوا صفة أدعى الى الاعجاب من القوة المـادية • ولم يكونوا قد أدركوا بعد الحكمة والعدالة ، ولم يكن لديهم أســـماء لهـما (٤٩) •

وقبل روسو بنصف قرن نبذ فونتنيل ما قاله روسو عن مثاليـة الهمج غير المتمدنين ، ففى رأيه أنهم كانوا أغبياء ، متوحشـــين • ولكنه أضاف « كل الناس متشابهون شبها كبيرا ، وليس ثمة جنس أو عرق ، لا نرتعد نحن فرعا من حماقاته وســخافاته (٥٠) » • وكان حريصا على أن يضيف أن تفسيره للأرباب ، ذلك التفسير المبنى على المذهب الطبيعى ، لم يطبق على آلهة المسحيين أو اليهود •

ووضع هذه الرسالة جانبا انتظارا لوقت أكثر أمنا واطمئنانا • وأمسك بالقرطاس واستعار عنوانا من لوشيان ، ونشر فى يناير ١٦٨٣ كتابا صغيرا أسماه « محاورات الموتى » • واكتسبت هذه المناقشات الخيالية بين مشاهير الموتى شعبية الى حد اشتد معه الطلب على طبعة ثانية فى مارس ، وثالثة وشيكا بعدها • وامتدحها بيل فى صحيفته « الأخبار » ، وقبل أن ينصرم العام ، ترجمت الرسالة الى الايطالية والانجليزية ، وذاع صيت فونتيل وهو فى السادسة والعشرين، فى كل أوربا ، وكانت الرسالة ميسرة فى متناول الجميع فى عالم يعج بالرقباء ، وكادت كل فكرة يعبر عنها أحد المتكلمين ، يدحضها آخر ويبرأ منها المؤلف ، وكان فونتنيل على أية حال أميل الى الدعاية منه الى الهرطقة • وكانت الأفكار التى ناقشها معتدلة ، ولم تمس أى كاهن بسوء • فان ميلو لاعب كروتونا الرياضي النباتى يتباهى بأنه قد حمل ثورا على كتفيه فى الألعاب الأولمبية ، فيعيره سمنديريد من سيباريس المجاورة ـ بأنه ينمى عضلاته على حساب عقله ، ولكن السسياريثى يعترف بأن الحياة الأبيقورية (الانغماس فى الملذات) عقيمة كذلك ، حيث تصبح اللذة مملة بالتكرار ، وتضاعف من مصادر الألم ودرجاته• ويثنى هومر على عيسوب لتعليمه مع الخرافات ، ولكنه يحذره من أن الحقيقة هى آخر ما يرغب فيه البشر » • ان روح الانسان تتعاطف مع الباطل الى أبعد حد •• • وينبغى أن تلبس الحقيقة ثوب الباطل حتى يتقبلها البشر بارتياح (٥١) » • وقال فونتنيل « لو أن الحقيقة كلها بين يدى فلا بد من أن أحرص على ألا أفتحهما (٥٢) » ، ولكن ربما كان هذا من قبيل العطف والاشفاق على البشر بقدر ما هو من قبيل الحب الطائش للمطاردة •

وفى ألطف المحاورات يلتقى مونتانى بسقراط ، فى الجحيم لا ريب ، ويناقش فكرة التقدم ، مونتانى ـ أهذا أنت ، سقراط المقدس ؟ ما أسعدنى بلقائك لقد جئت لفورى الى هذا المكان ، ومنذ تلك اللحظة كنت أبحث عنك • وأخيرا وبعد أن ملأت كتابى باسمك وبامتداحك وبالثناء عليك ، أستطيع أن أتحدث اليك •

سقراط ـ أنى سعيد أن أرى انسانا ميتا يبدو أنه كان فيلسوفا ، ولكن حيث أنك جئت من هناك أخيرا ••• دعنى أسالك عن الأخبار• كيف حال الدنيا ؟ ألم تتغير كثيرا ؟

مونتانى حقا ـ تغيرت كثيرا . قد لا تعرفها .

سقراط ـ كم ابتهج بسماع هذا . أنا لم أشك قط فى أنها ستصبح أحسن أو اعقل مما كانت فى زمانى .

مونتانى ـ مادا تقول ؟ انها أشد خبلا وفســـادا من أى وقت مضي . وهذا هو التغيير الذى أردت أن أناقشه معك . وكنت مترقبـا أن أسمع منك بيانا عن العصر الذى عشت فيه ، والذى ساده كثير من الأمانة والعدل

سقراط ـ وأنا ، على العكس ، كنت أنتظر لأعرف منك عجائب العصر الذى عشت فيه منذ أمد قصير . ماذا ؟ ألم يصـــلح الناس من الأخطاء والحماقات القديمة ؟ .. .. كنت أؤمل أن تتجه الأمور نحو العقل ، وأن يستفيد الناس من خبرة السنين الطوال .

مونتانى ـ ماذا تقول ؟ يستفيد الناس من الخبرة ؟ انهـم مثل الطيور التى كثيرا ما تركت نفسها نهبا للشراك التى وقع فيها بالفعل مئات الآلاف من نفس النوع . ان كل فرد يدخل جديدا الى الحياة ، وتقع أخطاء الآباء على الأبناء .. .. وللناس على مر القرون نفس الميول والنزعات التى لا سيطرة للعقل عليها . ومن ثم فانه حيثما وجد الناس وجدت الحماقات والأخطاء ، بل هى هى نفسها .. ..

سقراط ـ انك أضفيت مثالية على العصور القديمة لأنك غاضب على عصرك .. .. اننا فى حياتنا كنا نقدر أسلافنا أكثر ممـا كانوا يستحقون . والان يمجدنا أعقابنا فوق ما نستحق . ولـكن أســلافنا وأنفسنا وذرارينا كلهم سواء .

مونتانى : ولكن أليست هناك أزمان أفضل وأزمان اسوأ ؟ .

سقراط ـ ليس هذا بالضرورة . فالملابس تتغير ، ولكن هـــذا لا يعنى ن شكل الجسم يتغير كذلك . فالتهذيب والفظاظة والمعـــرفة والجهل .. .. ليست الا خارج الانسان ، وهى التى تتغير ، ولـكن القلب لا يتغير بأية حال ، وكل الانسان هو فى القلب .. .. وبين الجمهور الغفير من الناس الذين يولدون على مدى مائة من السنين ،

تنثر الطبيعة هنا وهناك نفرا قليلا لا يتجـــاوز عـــددهم ثلاثين أو أربعين • ممن يتمتعون بعقول راجحة (٥٣) •

وبعد بضع سنين من هذه الخاتمة المتشائمة ، مال فونتنيل الى نظرة أكثر تفاؤلا الى حد ما فى « استطراد القدامى والحديثين (يناير ١٦٨٨) » ، وهنا أوضح المؤلف فارقا بينا صغيرا • فى الشعر والفن لم يكن ثمة تقدم ملموس ، لأن هذين يعتمدان على الشعور والخيـــال اللذين لا يكادان يتغيران من جيل الى جيل • أما من حيث العـــلوم والمعرفة والثقافة التى تعتمد على تراكم المعرفة تراكما بطيئا ، فقد نتوقع التفوق على القدماء • وذهب فونتنيل الى أن كل أمة تمر بمراحل ، مثل الفرد ، ففى عهد الطفولة تعكف على مواجهة حاجياتها المـــادية ، وفى شبابها تضيف الخيال والشعر والفن ، أما فى مرحلة النضج فانها قد تدرك العلوم والفلسفة (٥٤) • وقال فونتنيل بأنه رأى الحقـــائق تبرز وتنمو من خلال عملية التخلص التدريجى من الأفكار الخاطئة • « نحن مدينون للقدامى لأنهم لم يبقوا على شيء من النظريات الزائفة التى كان يمكن تكوينها ، تقريبا » ـ أى أن ننسي أن بكل حقيقة عددا لا يحصي من الأخطاء الممكنة • ورأى أن ديكارت قد وفق الى طريقة جديدة أفضـــل للتفكير والاستنتاج ـ الطريقة الرياضية ، وتمنى للعلم الآن أن يتقـــدم بخطوات سريعة •

> حين نرى التقدم الذى أحرزته العـــلوم فى المائة عام الأخيرة ، على الرغم من الأهواء والعقبات وقلة عدد الافراد العلميين ، فقد يغرينا هذا الى حد كبير بأن نؤمل كثيرا فى المستقبل ، ولسوف نرى علوما جديدة تنبع من لا شيء ، على حين أن ما عندنا منها لا يزال فى المهد (٥٥) •

وهكذا صاغ فونتنيل نظرية التقدم « تقدم الأشياء » وتصور ، مثل كوندرسيه ، أنه ليس لهذا التقدم حدود معينة يقف عندها فى المستقبل ، وهنا كان « بلوغ البشر حد الكمال بلا حدود » • لقد وضعت النظـــرية القديمة قدمها على الطريق تماما ، وسارت بخطى ثابتة طيلة القـــرن الثامن عشر لتصبح أداة من أصلح أدوات الفكر الحديث •

وانا لنجد ، فى تلك الأثناء ، أن فونتنيل الذى كان خياله الرائع

يصبح محاذرا دوما غاية الحذر ، قد بات قاب قوسين أو ادنى من سجن الباستيل • ذلك انه حوالى ١٦٨٥ نشر رسالة مختصرة « علاقة جزيرة يورنيو » ، وهى رحلة وهمية ، صورها الكاتب فى صورة واقعية (استبق بها شبيهاتها عند ديفو وسويفت) الى حد أن بيل طبعها فى « الاخبار » على أنها تاريخ فعلى • ولكن الصراع الذى وصفته هذه الرسالة بين أنيجو ومريو كان هجاء سافرا للصراع الدينى بين جنيف وروما • ولما اطلعت السلطات الفرنسية على الجناس التصحيفى (تغيير ترتيب الحروف فى الكلمة) بدا أن اعتقال فونتنيل أمر لا مفر منه ، لأن الملاحظة الساخرة بدت وكأنها تنطبق على الغاء مرسوم نانت تماما • فأسرع فى نشر قصيدة يمتدح فيها « انتصار الدين فى عهد لويس العظيم » • وقبل اعتذاره • ومن تلك اللحظة حرص فونتنيل على أن تكون فلسفته غامضة يصعب على الحكومات ادراك مراميها •

وعاد الى العلوم ، وجعل من نفسه مبشرا بها فى المجتمع الفرنسي • وكان شديد الكلف بالدعة والراحة ، فلم يعكف بطريق مباشر على التجارب والأبحاث ، ولكنه وعى العلوم وعيا حسنا ، فقدمها لجمهور مستمعيه المتزايد ، فى جرعات صغيرة مغلفة بفن الأدب • ورغبة منه فى تقريب فلك كوبرنيكس الى الأذهان وجعله فى متناول الناس ، ألف « محادثات فى تعدد العوالم » (١٦٨٦) • وعلى الرغم من أن مائة وثلاثة وأربعين عاما كانت قد انقضت على ظهور كتاب كوبرنيكس فان قلة من الناس فى فرنسا ، حتى بين المتخرجين فى الجامعات ، كانت قد قبلت نظرية أن الشمس هى مركز العالم ، وأدانت الكنيسة جاليليو لأنه اعتبر أمرا مفروغا منه أن هذه الفرضية حقيقية ، وما يجرؤ ديكارت على نشر رسالته « العالم » التى اعتبر فيها أن نظرية كوبرنيكس قضية مسلم بها •

وتناول فونتنيل الموضوع فى كياسة تبعد عنه النقمة ، فتصور أنه يناقشه مع مركيزة مليحة يتحرك شكلها ـ غير المرئى ولكنه محسوس ـ أثناء الحوار بصورة مغرية فاتنة ، لأن الجمال اذا اتخذ لقب البطولة أمكنه أن يكسف النجوم • وكانت « المحادثات » الست أمسيات • وكان المشهد فى حديقة قصر المركيزة بالقرب من روان • وكان الهدف من ذلك هو أن يفهم الناس فى فرنسا ـ أو على الأقل سيدات المجتمع ـ حركة

الارض وتعاقب دوراتها ، ونظرية ديكارت فى الدوامات . وزيادة فى الاغراء أثار فونتنيل مسألة أخرى : هل القمر وسائر الكواكب مسكونة ؟. وكان ميالا الى أن يعتقد هذا . ولكنه تذكر أن بعض القراء قد تزعجهم فكرة أن فى العالم نساء ورجالا لم ينحدروا من آدم وحواء ، ومن ثم أوضح فى حزم ولباقة أن سكان القمر والكواكب لم يكونوا بشرا حقيقيين. ومهما يكن من أمر فانه أوحى بأنه قد يكون لهم حواس أخرى ، ربما كانت أدق من حواسنا ، واذا كان الأمر كذلك فانهم قد يرون الأشياء مختلفة عما نراها نحن ، فهلا تكون الحقيقة عندئذ نسبية ؟ . وقد يقلب هذا كل شيء رأسا على عقب ، حتى أكثر مما فعل كوبرنيكس . وأنقذ فونتنيل الموقف بالاشارة الى جمال الكون ونظامه ، مقارنا اياه بساعة ، مستدلا بميكانيكية الكون على صانع بارع ذى ذكاء خارق .

ولما كانت الرغبة فى التعليم من أقوى الرغبات فينا ، فان فونتنيل عاود المخاطرة بالاقتراب من الباستيل باصداره فى ديسمبر ١٦٨٨ رسالة غفلا من اسم المؤلف ، هى أجرأ رسائله الصغيرة تحت عنوان « تاريخ الوحى » . واعترف بأنه اقتبس مادتها من كتاب « الوحى » الذى ألفه أحد الباحثين الهولنديين ، فان وايل ، ولكنه حورها بأسلوبه الواضح الرشيق . وقال أحد القراء : « انه يتملقنا لمعرفة الحقيقة » وهكذا قارن الرياضيين بالعاشقين . « ضع أمام الرياضي أقل قاعدة أو مبدأ ، ولسوف يستنتج منه نتيجة ، يجدر بك أن تسلم له بها ، ومن هذه النتيجة أخرى وهكذا .. .. (٥٦) . ان رجال اللاهوت كانوا قد قبلوا بعض الوحى الوثنى باعتباره صحيحا صادقا ، ولكنهم كانوا قد نسبوا دقته المعارضة الى ايحاء شيطانى ، واعتبروا برهانها على قدسية أصل الكنيسة ، أن هذا الوحى انقطع منذ مجىء السيد المسيح ، ولكن فونتنيل أوضح أن الوحى استمر حتى القرن الخامس الميلادى . وبرأ الشيطان من أنه صانعه ، فالايحاءات كانت حيلا من الكهنة الوثنيين الذين تحركوا فى المعابد ليأتوا بمعجزات ظاهرة ، أو ليستولوا على الطعام المقدم من العابدين للآلهة . وادعى أنه ما تحدث الا عن الوحى الوثنى، وأنه استثنى صراحة الوحى والكهنة المسيحيين من هذا التحليل . ولم يكن هذا المقال ومقال « أصل الأساطير » مجرد ضربتين ايذانا بعصر الاستنارة ، بل كانتا كذلك ، مثلين لمدخل جديد الى المسائل اللاهوتية

ـ تفسيرا للمنابع البشرية للمعتقدات الدينية ، وبهذا يضفى الحالة الطبيعية على كل ما هو خارق للطبيعة ٠

وكان « تاريخ الوحى » آخر العمليات التى استنزفت حيوية فونتنيل ٠ وفى ١٦٩١ انتخب عضوا فى الأكاديمية الفرنسية برغم معارضة راسين وبوالو ٠ وفى ١٦٩٧ أصبح ، وبقى لمدة اثنين وأربعين عاما ، السكرتير الدائم لأكاديمية العلوم ٠ وكتب تاريخها ، وأطنب فى امتداح من فارقوا الحياة من الأعضاء ٠ وهذا يشكل سجلا وعرضا وضاءين للعلوم فى فرنسا لمدة نصف قرن تقريبا ٠ وبمثل هذه الجلسات العلمية استطاع فونتنيل أن ينفذ ـ بمثل القدر من الغبطة والسرور الى الصالونات ـ صالون مدام دالمبرت أولا ، ومدام دى تنسين ، ثم مدام دى جيوفرين ٠ وكان موضع الترحيب ، لا لمجرد شهرته باعتباره كاتبا، بل لأن روح الكياسة واللطف والمجاملة لم تفتر فيه قط ٠ انه مزج الحقيقة بالتعقل ، واستنكف أن يعكر جو المناقشة بالخلافات ، ولم يكن ذكاؤه لاذعا ٠ « لم يكن فى عصره من هو أكثر منه تفتحا فى الذهن أو تجردا من الحقد والضغينة والتحيز (٥٧) » واتهمته فى حمق مدام دى تنسين، التى كانت سريعة الانفعال والغضب ، بأن له مخا آخر لابد أنه كان يحتفظ فيه بقلبه (٥٨) ٠ ولم يستطع الشباب قتلة الالهة الذين كانوا يتكاثرون حوله أن يفهموا اعتداله أكثر مما استساغ هو تعصبهم وعنفهم ٠ « انى لتزعجنى الحقائق التى تسيطر من حولى (٥٩) » ٠ ولم يرشرا محضا فى ضعف سمعه حين تقدمت به السنون ٠

وظاهر أنه فى نحو الخمسين من العمر اعتزم الا يقدم بعد ذلك الا خدمات أفلاطونية للسيدات ، ولكن كياسته لم تتداع ٠ وعندما قدموه الى سيدة جميلة ، وهو فى سن التسعين ، قال : « آه : لو أنى الآن فى الثمانين فقط !(٦٠) » وفى سن التاسعة والثمانين تقريبا افتتح حفل عام جديد بالرقص مع ابنة هلفيشيوسي البالغة من العمر عاما ونصف العام(٦١) ٠ ولما قالت مدام جريموذ متعجبة ، وكانت فى مثل سنه تقريبا « حسنا ٠ ها نحن كلانا حى يرزق » وضع أصبعه على شفتيه وهمس « صه يا سيدتى ، ان الموت قد نسينا (٦٢) » ٠

ولكن الموت عثر عليه أخيرا فى ٩ يناير ١٧٥٧ ، واختطفه فى سكون ، ولم يكن قد مرض الا يوما واحدا ٠ وأوضح لأصحابه أنه كان

« يعانى من وجوده » وربما كان قد احس بانه قد بلغ من العمر أرذله. ويقى له ثلاثة وثلاثون يوما ليتم من العمر قرنا كاملا . لقد كان مولده قبل أن يتسلم لويس الرابع عشر دفة الحكم ، وشب وسط انتصـــارات بوسويه ، والغاء مرسوم نانت واضطهاد البروتستانت . وعاش ليرى « دائرة المعارف » ، وليستمع فولتير وهو يدعو الفلاسفة لشن الحـرب على الموبقات .

+ + +